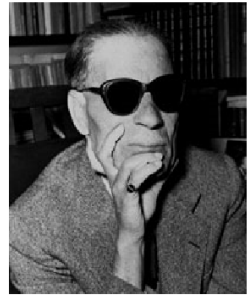


طه حسين ووجهة نظره في الأدب العربي القديم

عبد الناصر سي. هـ.

أستاذ مساعد، قسم العربية، كلية كاسركود الحكومية، كاسركود، كيرلا



ومما لا يخفى على أحد أن معرفة وجهة نظر البحث عند طه حسين في دراسة الأدب العربي القديم والأسس الفكرية والمنهجية لنظريته النقدية لأمر صعب ، وهذا هو ما وجدناه عندما قمنا بالبحث في هذا الموضوع ، فحاولنا الوصول إلى معرفة هذا النظر وطبيعته ، ذلك النظر الذي جلب لصاحبه الكثير والكثير من المشاكل و المعارضات من النقاد حتى ألصق به الكفر و الزندقة . وقد وضع كثير من النقاد و الأدباء أيادهم في هذا الموضوع من عدة زواياه ، وانقسموا إلى حزبين بين المعارضين و الموافقين ، وعلى الرغم من محاولات أصحاب الفريق الأول في مساندة طه حسين الفكرية والسير على دربه ، إلا أن أصحاب الفريق الثاني كانوا أشد موقفاً وأعظم حجة ، فعددوا المآخذ عليه ومنها أنه لم يلتزم بالمنهج الذي يريد أن يصطنعه، وأنه أطلق الأحكام جزافاً، ولم يؤسس لنظريته بالتثبت أولاً من الحقائق قبل أن يدخل في دور الفرض، فكان يبدأ بالفرض ثم يبني عليه فرضاً آخر، ثم ينتهي بالقطع والجزم والثبوت ، ووجدنا أنه لكي نبحت في منهج طه حسين الذي أحدث ضجة كبيرة لدى الأدباء و النقاد ، أنه علينا أولاً أن نقوم بمعرفة دراسته الثنائية الفكرية العربية الإسلامية والفرنسية الأوروبية ، ومدى تأثير هذه الثنائية الفكرية في نظريته النقدية في الأدب العربي .

لهذا حاولنا في هذا البحث أن تكون دراستنا فيه أدبية منهجية نقدية للخطاب الفكري لديه ، واجتهدنا في بحثنا لنصل إلى منهج البحث عنده في دراسته للأدب العربي القديم ، ومعرفة الأسس الفكرية والمنهجية لنظريته النقدية والتي يترتب عليها دراسة الثنائية الفكرية العربية الإسلامية والفرنسية الأوروبية له، وتأثير هذه الثنائية الفكرية في نظريته النقدية في أدبنا العربي بصورة عامة ، وشعرنا الجاهلي بصورة خاصة. ومما لا شك فيه أن طه حسين هو واحد من أهم الشخصيات المؤثرة في الحياة الفكرية المصرية خلال القرن العشرين والواحد والعشرين ولهذا كثرت الدراسات التي تناولت تأثيره الفكري على مجتمعا المصري خاصة والعربي عامة .

طه حسين تبني المنهج الفلسفي لديكارت الفيلسوف الفرنسي ، وأعلن هذا في بداية دراسته للبحث الأدبي في كتابه (في الشعر الجاهلي) ، ومن خلال السياق وجدنا أنه أيضاً تعرض لقضية مهمة جداً ألا وهي الحرية بين الأدب و الأدباء ، فالحرية ضرورية للأدب ؛ لجعله غاية بعد أن كان وسيلة ، فطه حسين عندما تعرض للأدب العربي القديم لم يأخذه هكذا على علاقته بل قام بالتحقق منه وإعمال العقل ، ونادى بالحرية المنهجية التي قصد بها استقلالية الباحث ، وحرية في البحث العلمي من ناحية ، وحرية في اختيار المنهج الذي يعمل به من ناحية أخرى يقول : "أريد أن أصطنع في الأدب هذا المنهج الفلسفي الذي استحدثه ديكارت للبحث عن حقائق الأشياء في أول هذا العصر الحديث والناس جميعاً يعلمون أن القاعدة الأساسية لهذا المنهج هي أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعلمه من قبل ، وأن يستقبل موضوع بحثه

خالي الذهن مما قيل فيه خلوا تاماً" (١) ويرى محمود أمين العالم أن الشك عند طه حسين هو مجرد أداة إجرائية للنقد والتحليل.^٢ فاستفاد استفادة مباشرة من المنهج الشكي لديكارت ، ونلاحظ هذا من خلال طه حسين نفسه حيث يقول " وضع علم المتقدمين كله موضع الشك ولا نقبل شيئاً مما قاله القدماء في الأدب وتاريخه إلا بعد بحث وتثبت إن لم ينتهياً إلى اليقين فقد ينتهيان إلى الرجحان " (٣)

ومن الواضح أن طه حسين اكتفى فقط بالأخذ بمقولة الشك مجردة من مقومات المنهج الديكارتى وبمعزل عن نظريته في المعرفة ، ويؤكد هذا الكلام الدكتور حسين مروة الذي يرى طه حسين إنما أخذ الجانب الشكلي من مذهب الشك عند ديكرت مجرداً من مضمونه الفلسفي أو مفرغاً من مضمونه ذلك أن مذهب الشك مبني عند "ديكرت" أولاً على مفهومه الخاص لموضوع الفلسفة وثانياً على اتجاهه العقلاني في نظرية المعرفة فمن الوجهة الأولى كان ديكرت يرى أن موضوع الفلسفة هو الطبيعة والإنسان ولم تكن فكرة (الله) حاضرة حين صاغ مذهباً في الشك ومن ثمة قوله بالشك في المعارف التي تكرست في وعي الإنسان خلال تاريخه الطويل" (٤)

ويرى طه حسين هنا أنه لكي يستقيم الأدب و الشعر علينا أن نحرر هذه اللغة من تلك القدسية ، ولابد وأن تخضع للدراسة و البحث و النقد ، وعن هذه القضية طالعنا الكثير من النقاد بعدة آراء كان أكثرها يقع في وصف طه حسين بما يشبه الغباء والعتة ، فكلامه مناقض مع بعض وعلى سبيل المثال رصدنا كلام دكتور خالد يونس، وقد وجه سؤالاً لعميد الأدب العربي بقوله: "طه حسين لم يبين علمياً أن تحرر اللغة العربية من التقديس يؤدي حقاً إلى تحرر الأدب والأديب ليستقيم الأدب. يقع طه حسين في التناقضات بهذا الصدد في طرح أفكاره عن اللغة العربية، فهو من جهة يؤكد أن اللغة العربية لغة القرآن وهي وسيلة لفهم القرآن، مما يعني ضرورة الحفاظ على هذه اللغة بكل الوسائل باعتبارها وعاء الثقافة والعقيدة لنلا نتحول إلى لهجات تؤدي إلى صعوبة فهم القرآن وتفسيره. ومن جهة أخرى يقول أن القرآن أصدق مرآة للعصر الجاهلي لذلك فإنه يدرس الشعر الجاهلي في نص لا سبيل إلى الشك في صحته". (٥) وحول هذه الثنائية الفكرية التي تتمثل كما قلنا بين الآداب العربية الإسلامية والآداب الفرنسية الأوروبية ، نجد أنه هناك شخصيات أثرت في فكر وتوجيهات طه حسين ، ومن الشخصيات التي أثرت في فكره وتوجيهاته في الآداب العربية والإسلامية أمثال الغزالي والجاحظ وأبو العلاء المعري وابن خلدون وعبد القاهر الجرجاني وأحمد لطفي السيد، والشيخ محمد عبده ، وهناك شخصيات أخرى أوروبية تأثر بهم ، ومنهم على سبيل المثال مارجوليوت ورينيه ديكرت وفولتير وولانسون.

وللثقافة الفرنسية في فكر طه حسين أثر كبير في حياته ونذكر مثلاً على سبيل المثال من مصادر هذا التأثير قراءاته المتذوقة لبعض شخصيات الأدب الفرنسي خاصة (أناتول فرانس ، وأندريه جيد) أيضاً دراسته للثقافة اليونانية والتي تلقاها في فرنسا ممثلة في دراسة اللغة اليونانية ، والأدب اليوناني القديم ، والفلسفة اليونانية ، وكل هذا ظهر فيما بعد في مؤلفاته وترجمات عن الفكر اليوناني. ونجد أن تأثير الثقافة الفرنسية في حياته المنهجية والفكرية تمثلت في تعرفه على علوم الفلسفة اليونانية والمنطق بما تحويه من اتجاهات عقلانية ومن بذور للمنهج الشكي في المعرفة استعان به في فهم المنهج الشكي عند ديكرت و دراسته للأدب الفرنسي والأدب اليوناني وللمنهج الأوربي في دراسة الأدب والتاريخ له و تعرفه على فلسفة نقد المعرفة وهي الفلسفة العقلانية التي وضعها رينيه ديكرت ومن خلال المنهج الشكي للمعرفة .

١ طه حسين في الأدب الجاهلي الطبعة الخامسة عشرة دار المعارف ص ٦٧-٦٨

٣ طه حسين ، مواقف نقدية للتراث ، ص ٣٢٤٣

٤ حسين مروة ، النزعات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية ، ج ١، ص ٤٣١٩

٥ دكتور خالد يونس ، فلسفة الشك ومنهج تحقيق النص في فكر الشيخ محمد عبده وطه حسين ، ص ٣٨

وحول النظريات والمناهج التي استفاد منها طه حسين في منهجه النقدي فقد تعددت المصادر التي استقى منها منهجه العلمي والذي طبقه كمنهج موحد صالح لمجالاته الأدبية والتاريخية والدينية، ونذكر منها مثلاً منهج كلا من (ابن خلدون، ديكارت، فلهاوزن، مرجوليوث)، فطه حسين كان على صلة علمية قوية بابن خلدون فقد تخصص طه حسين في الفكر الاجتماعي عند ابن خلدون وكتب رسالته للدكتوراه في فكر ابن خلدون. وجدير أن نذكر هنا في مقامنا هذا مدى تأثير مقدمة ابن خلدون على التكوين العلمي والمنهجي له وبخاصة الجانب التاريخي (١).

وعن ديكارت فقد تأثر به طه حسين وخاصة في الأخذ بمبدأ الشك فديكارت يرفض أن يسلم بوجود كل ما لا يكون في مأمّن تام من إمكان الشك فيه، فهو يخضع كل ما يظهر لنا في حياة التجربة والفكر على أنه يقيني للنقد المنهجي، وذلك من جهة إمكانات الشك التي يمكن أن يظهرها النقد. كذلك تأثر طه حسين بمنهجه الفلسفي؛ وذلك بحثاً منه عن حقائق الأشياء، والقاعدة الأساسية لهذا المنهج كما يقول هي "أن يتجرد الباحث من كل شيء كان يعمل من قبل، وأن يستقبل موضوع بحثه خالي الذهن مما قيل فيه خلوا تاماً" (٢). ونجد طه حسين يسير في دروب المنهج الديكارتي بخطوات مطمئنة إلى سبيلها وأعتبر الأخذ بهذا المنهج أمراً حتمياً فنراه يقول "وأعتبر الأخذ بهذا المنهج حتمياً بالنسبة لمن يدرسون العلم ويكتبون فيه، ويشير طه حسين إلى تأثر الباحثين في الأدب والتاريخ بمنهج ديكارت الفلسفي، ويؤكد على ضرورة استخدامه في بحثنا العلمي والأدبي وفي نقدنا لأدبنا وتاريخنا في المستقبل" (٣).

وأما عن مرجوليوث فيعتبر هو حلقة الوصل بين فلهاوزن وطه حسين فيما يتعلق بالانتحال، فالمستشرق مرجوليوث كان أول من طور نظرية متكاملة في انتحال الشعر الجاهلي طبق فيها منهجية مدرسة نقد العهد القديم، ومنهج النقد الأدبي والتاريخي الذي ورثه المستشرقين عموماً عن علم نقد الكتاب المقدس. ومن ناحية أخرى لونتبعنا أقوال بعض الأدباء والنقاد في منهج طه حسين فمثلاً نجد دكتور خالد يونس يعدد أهم المناهج التي تأثر بها طه حسين من وجهة نظره هي: "المنهج النفسي والبلاغة عند القاهر الجرجاني، النظرية الاجتماعية التاريخية لأبن خلدون، النظرية العقلانية لديكارت، والفلسفة الوضعية لدى أوغست كومت، والمنهج التاريخي لتين، ومنهج تحقيق النص لدى الشيخ محمد عبده، والمنهج السوسيولوجي لأميل دوركيم المعروف بمنهج دوركيم الاجتماعي" (٤).

فطه حسين استخدم منهجاً توفيقياً كما يشير الكثير من النقاد؛ لكي يلام الثنائية الفكرية التي كان يتمتع بها، فهو لم يستند على نظرية عربية أو فرنسية واحدة، بل أخذ من التيارات والمناهج أفكاراً وآراء، كل ذلك ليوافق هذا شخصيته المترددة التي لا تقتنع إلا بالحجة المصحوبة بالبحث والتحقيق، وحاول أن يوفق بين الإتجاهات المختلفة. لقد حاول طه حسين أن يبحث عن نموذج منهجي متكامل، ليعيد به قراءة التراث الأدبي، حيث جرب مجموعة مناهج تمنح أدواتها من المنهج التاريخي للأدب فيقول: "وفي الحق إن الناقد لا يقتنع بما كان يقتنع به سانت بوف وتين وجول لوميتير ولاتسون، وبالرغم من الفروق المنهجية بين هؤلاء النقاد، وإنما استطاع أن يوفق لهذا كله ويستخلص منه غرضاً شاملاً يطلبه ويسمو إليه حين ينقد فيفهم شخصية الشاعر أو الكاتب وعصره وفنه" (٥).

فطه حسين هنا كان همه الأول هو تأسيس منهج توفيقى يضم الاختلاف والتعدد الواقع بين هؤلاء النقاد المختلفين في تصوراتهم التي يصدر عنها، هذه النزعة التوفيقية التي تسعى إلى إدغام المناهج المتعددة والمختلفة في منهج واحد

١ محمد عبدالله عناني، فلسفة ابن خلدون الاجتماعية. تحليل ونقد، للدكتور طه حسين، مكتبة الأسرة ١٢٠٠٦

٢ طه حسين، في الأدب الجاهلي، الطبعة الخامسة عشرة دار المعارف، ص ٦٧، ٦٨

٣ طه حسين، في الأدب الجاهلي، الطبعة الخامسة عشرة دار المعارف، ص ١١٦

٤ محمد عبدالله عناني، فلسفة الشك ومنهج تحقيق النص في فكر الشيخ محمد عبده وطه حسين ص ٨٧

٥ طه حسين، في الأدب الجاهلي، الطبعة الخامسة عشرة، دار المعارف، ص ١٨٣

، ودراسة طه حسين للشعر و للأدب الجاهلي بهذه الطريقة العنثية وإن رأها البعض كذلك، لم يقصد بها هدم الشعر الجاهلي و القضاء عليه. ولما كان منهج طه حسين النقدي قائم على صيغ توفيقية باعتراف الدكتور عصفور نفسه ، فلا بد أن نتحاوّر عناصر متباينة أو متنافرة أو متعارضة مهما حاول صاحبه أن يحسن عملية الانتقاء ويحث نوعاً من التجاوب بين هذه العناصر ولكن الدكتور عصفور يرد على من يتبنى مأخذاً كهذا "بأن الانتقاء عملية اختيار لا تتم بالمصادفة ، بل تخضع - مهما استرسلت أو أرسلت - إلى أسس تحتية قارة ، توجه حركة الاختيار ، وتحدد مجاله ومعطياته مثلما تحدد المقبول أو المرفوض ، والتوفيق عملية تصالح بين العناصر المنتقاة لتجاور بينها، على نحو ينفي التناقض الظاهري على الأقل ، وبقدر ما يدخل التوفيق عناصر متباينة - أو متنافرة أو متعارضة - إلى الفكر النقدي، يعمل التوفيق على إحداث لون من التجاوب بين هذه العناصر ، فتتحول عملية التوفيق إلى عملية صياغة للانتقاء ، بنفس القدر الذي ينطوي فيه الانتقاء على عملية توفيق" (١). ومن أهدافه أيضاً أن يوصل ذلك الأدب إلى عقول الناس لإحيائه بعد أن كان منسياً، وهو يعترف أنه سيواجه الخصومة لكنه كان يؤثر رضى العلم والضمير على رضى الناس. يبدو أنه لم يرغب أن يحتال على نفسه وعلى الآخرين، فطرح منهجه ونظريته بذلك الشكل متحدياً الصعوبات.

ومن المناهج أيضاً التي أخذها في منهجه التكاملي أو التوفيقى ، فطه حسين اقتنع بالمنهج التاريخي وحاول تطبيقه في الأدب العربي وهذا بفضل أستاذه "لانسون" ، لكنه رغم ذلك لم يكن حريصاً كل الحرص في تطبيقه لهذا المنهج في كل مؤلفاته الأدبية ، حتى أنه عندما قام بتطبيق هذا المنهج في كتابه في الشعر الجاهلي لم يلتزم التزاماً دقيقاً بهذا المنهج في الكتاب وذلك كما يرى الدكتور عبد المجيد حنون. وفي أواخر البحث نفهم من هذا العرض أن وجهة نظره والمنهج الذي بناه طه حسين آثار ضجة كبيرة لدى النقاد و الأدباء ، هو ذلك المنهج التوفيقى أو التكاملي ، الذي جمع فيه طه حسين بين الثقافة العربية الإسلامية والثقافة الفرنسية الأوروبية ، فنتج عن هذا دراسة الأدب بعدة مناهج مختلفة كما ذكرت ، منها المنهج الشكي ، والفلسفي ، والتاريخي وغير ذلك. ولا محالة في أن منهجية طه حسين في البحث الأدبي تعرضت للكثير من النقد ، ولكنها تبقى مدرسة خالدة في ميدان النقد العلمي التوثيقي للحقيقة التاريخية التي تعطي الأدب الجاهلي مصداقيته وخلوه من الدخيل ، وليست هذه المقاييس فتحاً جديداً في طريقة التفكير والبحث والاستقراء الأدبي فحسب ، بل هي أيضاً لبنة في المنهج العلمي الذي سار عليه الغرب حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه من الرقي والتقدم. وهكذا استطاع طه حسين أن يثبت نفسه في مجال النقد المنهجي.

المصادر والمراجع

١. طه حسين ، في الأدب الجاهلي الطبعة الخامسة عشرة دار المعارف - ١٩٣٠
٢. د/ عبد المجيد حنون ، اللاتسونية وأثرها في رواد النقد العربي الحديث - مكتبة الأسرة - ٢٠٠٦
٣. د/ شكري فيصل، ذكرى طه حسين. دار الآفاق ، بيروت - ١٩٨٩
٤. دكتور خالد يونس ، فلسفة الشك ومنهج تحقيق النص في فكر الشيخ محمد عبده وطه حسين.
٥. د/جابر عصفور ، المرايا المتجاوزة ، دار النهضة - ١٩٩٨
٦. يماني العيد ، ممارسات في النقد الأدبي ، دار الفارابي ، بيروت - ١٩٧٥
٧. نبيل سليمان ، مساهمة في النقد الأدبي، ط ٢ ، دار الحوار - ١٩٨٦